



ما ترك من استبداد ومستبدین، وما تجذر من أجهزة عقیمة في الدول الاستبدادية الشمولية الديكتاتوریة على مدى عقود، كل ذلك أفرز دولة عمیقة ومتجردة في كل مناحي الحياة مما يتذرع خلها بالسهولة التي يتمناها أصحاب الثورات والنوايا الطيبة، وما لم يتكلّف ويتحالف الجميع في مواجهة الدولة العمیقة كل بحسب موقعه وقدراته وإمکانیاته، لحشد المجتمع كله في مواجهتها، مع توفر رأس يفكّر لها ويوظف الجميع من أجل الهدف الأسمى والأعلى وهو خلع الاستبداد فسيظل الطريق طویلاً والتضحيات عظيمة أمام الثوار والمجاهدين في أحسن الأحوال، وإلا فإن الفشل والتفشيل سيكون حليفهم في مواجهة شراسة محلية وعالمية، إذ إن الدولة العمیقة تستمد عمقها أيضاً من نظام عالمي عمیق وعقم تأسس في منطقتنا العربية ولمجابهه هذا الاستحقاق يوماً ما وقد حان.

الدولة العمیقة هي عبارة عن تبادل الدولة العمیقة للمصالح والحماية، مع شراء الولاءات والفوپسی، فليدیها رموز وإدارات في كل مناحي الحياة وهو ما تجلی وظهر بوضوح في سوريا ومصر والیمن وغيرها، تبدأ هذه الدولة العمیقة من المؤسسة العسكرية والأمنية ومعها القطاع الخدماتي كله، حيث تقطع الكهرباء أو الغاز في الوقت المحدد من أجل تحريك الشارع ضد المنتخبيں أو ممثلي الشعب كما حصل مع مرسي، وكذلك تصل أذرع الدولة العمیقة إلى التعليم والإعلام والفن ورجال الدين، فالكل له مصالح عند هذه الدولة العمیقة لا يستطيع أن يتخلّى عنها، وإن فقد تنهّد حياته الشخصية، ولنذكر تدخل أجهزة المخابرات وهي أعمق ما في الدولة العمیقة في كل شاردة وواردة من حياة الناس ببعض هذه الدول.

الرد الثوري الجهادي على هذه الدولة العمیقة هو بتجزير الثورة وتعويقها وتوصیعها بين كل شرائح الشعب المنتفض ضد الظلم والاستبداد وحين سأله هرقل أبا سفيان عن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام هل أتباعه يزيدون أم ينقصون؟ رد عليه بصدق بل يزيدون، فقال له هرقل وتلك سنة الأنبياء، وسيملأ أي النبي عليه الصلاة والسلام، ما تحت قدمي، إذن أدرك هرقل أن الثورة المحمدية تتعمق وتتوسّع وبالتالي بقدر ما تتمدد يتقلّص الحكم القبلي العميق ويتأكل، وقد كان..

و حين اختلفت قريش على من يحمل الحجر الأسود دخل النبي عليه الصلاة والسلام بفکرته الرائعة الممثّلة بوضعه في رداءه الشريف لتحملها كل القبائل المتنازعة، ليؤكد من جديد أن الكل ينبغي أن يشعر بحجمه وأهميته وضرورته، وألا يقتصر الأمر

على جماعة وتنظيم، وهذا في حمل حجر الأسود بما يملك في انتزاع صخرة دولة كالشام من نظام عالمي مجرم احتلها لعقود فكانت واجهته العصابة البرميلية فقط، ويظن صاحب الجماعة المسكين أنه بحوله وقوته سيفريح النظام أو يفرض مشروعه، وإن أصر على موقفه هذا متجاهلاً إخوانه وشعبه فسيذكر قوله النبي عليه السلام «إِنَّ الْمُنْبَتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهَرَ أَبْقَى».

النواقل حين فرضت كما يقول الأصوليون كانت لحماية الفرائض وبقدر أداء المسلم للنواقل بقدر حماية الفرائض من أن تنقص، ولو تخلى المسلم عن النواقل فإن أي نقص قادم سيكون للفرائض، وهو ما ينطبق تماماً على الثورة والثوار فإن رأس المال هم الثوار المدافعون عن الثورة ولكن مع مرور الوقت لا بد من تشكيل الأطر والأجهزة والإدارات الحياتية الخادمة للثورة من أجهزة مشيخية وثقافية وإعلامية ونسوية فنية، وحقوقية، وتعليمية، ونقابات خدماتية، وعمالية وفلاحية وتجارية، وبالطبع عسكرية وسياسية وعلاقات دولية وغيرها من شؤون الحياة، بحيث لا نغفل شريحة مجتمعية دون أن نؤطرها في إطارها فالكل له دوره، والكل ستحتاجه يوماً ما، وبقدر توسيع دائرة المستفيدين من الثورة بقدر ما نفلح من دائرة المتضررين منها. نرى اليوم مثلاً ساطعاً حين يتبعه أو يتأخر علماء الشام مثلاً عن دورهم في تبيان حقيقة ما يقع على الأرض كيف يتقدّم بعض المشايخ من خارج الحدود ليفتون لصالح تنظيم أو مجموعة لا يدركون أن خطراً ذلك سيكون كارثياً على الثورة والثوار ومصير الشام وأهلها، فلا يزال البعض يفكّر بعقلية غيتو التنظيمات والجماعات، ولم يكسر حاجز التنظيم لينطلق إلى رحابة الأمة التي انتفضت شبيهاً وشبانها على الظلم والظالمين والاستبداد والمستبددين.

وحين ضرب ربنا مثل الشجرة الطيبة «أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ» كان التأكيد على الثبات، فالأخصل هو العمق في كل شيء، وإن تباعدت الفروع والأغصان فإن جذور الأشجار متقاربة في الأرض، فلا تحكم على عمل واحد للشخص أو للجهة، وإنما لا بد من فهم وفقه مقاصده ومراميه وأفكاره، وإنما فسيكون حالك كمن قال ربنا تبارك وتعالى «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

ما زلت أذكر ما قاله لي أحد السياسيين المعروفين حين التقى الرئيس العراقي الراحل صدام حسين فقال الأخير حين قمنا بانقلابنا وجدنا أن معوقات عملنا هي المراسيل بين الوزارات حيث لا يزالون على ولائهم الملكي القديم، فأقمنا جامعة البعث لتخرج الخريجين بسرعة من أجل خدمة الدولة والنظام الذي نريده، فلك أن تخيل دور مرسال في تعويق ثورتك ونظمك، مما يملك بأجهزة متعددة عميقة وخطيرة لها مصالح وعلاقات داخلية ودولية، وهنا تستطيع فهم إصرار العالم المجرم كله على فرض مؤسسات الدولة العسكرية والأمنية السورية على الثورة السورية.

فلباب النصر مفاتيح عسكرية وسياسية وثقافية وفكرية وعلمية ومشيخية وغيرها، وللمفاتيح أسنان، ولا يمكن فتح الباب إلا بمفتاحه وأسنانه، ومن لم يتواضع في البحث عن المفتاح صاحبة الأسنان الخاصة بذلك الباب، فإنه سيضيع ويضيع معه جهود كل من بذلوا دماءً وآهات وتشرد لا يعلم بها إلا الله تعالى في الشام وغيرها، فالحكمة الحكمة، والحزن الحزن.